محاضرة رقم01

مدخل إلى الفلسفة الهيجلية
قراءة في نص الفاتحة
أد. مونيس بخضرة

فينومينولوجيا* الروح**، نص شرع غيورغ فلهلم فردريش هيجل Georg Wilhelm Friedrich Hegel (1770-1831) في تأليفه في شتاء (1805-1806)، وفرغ منه في يناير 1807، وبدأ طبعه في فبراير 1806 عند مطبعة يوزيف أنتون غوبهاردتJoseph Anton Goppeardt ، وصدر في بامبرغ Bamberg و فروتسبورغ Würzburg في أواخر شهر مارس 1807 بمناسبة معرض عيد الفصح، وأخرج في سبعمائة و خمسين نسخة، تضمنت كل منها سبعمائة وخمسة وستين صفحة، زائد إلى نص الإستهلال الذي يحتوي على إحدى وتسعين صفحة مرقمة بالأرقام الرومانية.

الغرض الأسمى من هذا الموضوع، هو غرس مفهوم الفينومينولوجيا غرسا متينا في القول الفلسفي وأدبياته، والوقوف بروية عند سؤال البدء في الفلسفة Question de départ en philosophie ، وما ألت إليه عملية تشابك المنطق بالميتافيزيقا من جهة هي أصل الفينومينولوجيا.

التأمل في هذا النص، يجعلنا نؤكد أنه ظهر عن عزم فلسفي شديد، يهدف إلى وضع نسق شامل في الفلسفة ترفع من شأن الفلسفة إلى مستوى العلمية، ومن أجل تحقيق الصورة اللمثلى للفلسفة Est optimisé pour la philosophie على صورة التفكير réflexion من أجل تحقيق شرط علمية الفلسفة[1].

---

* ظاهرية (مذهب الظاهر) Phénoménalisme: مذهب يرى أن البشر لا يمكنهم سوى معرفة المظاهر و ليس الأشياء بذاتها، لكنه لا ينفي وجود هذه الأشياء، و حتى أنه يسلم بذلك صراحة، هذا مثلا هو حال المذهب النقدي الكانطي والوضعانية عند أوغست كونت و النشؤوية عند سبنسر.أو هي ما يتراءى للوعي، و ما هو مدرك، مرئي، في المستوى الطبيعي، و في المستوى النفسي على السواء (الظواهر البيولوجية).

يعرف كانط الظاهرة قائلا< الظاهرة هي لكل ما يكون موضوع اختبار ممكن، أي كل ما يظهر في الزمان و المكان، و يبرز العلاقات المحددة بالمقولات من جهة، مع مادة المعرفة المحضة، و من جهة ثانية و بنحو خاص مع الحقيقة العقلية أو الشيء بذاته>.

أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية المجلد الثاني، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات بيروت – باريس ط2 2001 ص970.

** الروح Esprit: الروح في مقابل المادة، عندئذ تكون النتيجة جوهريا هي الأطروحة المناقضة للفكر و للموضوع الفكرة، للوحدة الفكرية و لكثرة العناصر التي يجري توليفها. أندريه لالاند. موسوعة لالاند الفلسفية المجلد الأول، المرجع نفسه ص364.

[1] Robert Brandon, Rolf-Peter Horstmann, Walter Jaesche,Terry Pinkard, Robert Pippin Ludwig Siep, La Phénoménologie de l'esprit de Hegel, Lectures Ccontemporainse , Fondments de la Politique Presses Universitaires de France 2009 paris p17.

يشير مصدر فينومينولوجيا Phénoménologie و صفة فينومينولوجي ، أنه قد تمّ في سياق صوفي إشراقي، و كان يدل على طريقة بعينها في تحري و اعتبار ظواهر الكون من حيث دلالتها على أنها العلة الأولى[2].

على هذا المعنى استعمل المتصوف الألماني (ف.ش. أوتنغر .P. U Oettinger) مفهوم فينومينولوجي عام 1762، في الوقت نفسه كان يوهان هاينرش لامبرتJohann Heinrich Lambert ، يشتغل على الفنومينولوجيا أو بما سماها ب: البصريات الترسندنتالية.

و جعل من الفينومينولوجيا فقه الظاهر de la jurisprudence l'apparente*، الذي يقصد به معرفة الحق من ظاهره الذي يكون حسيا و نفسيا و أخلاقيا، و غرض الفينومينولوجيا أيضا من جهة ما هي أورغانون جديد New Organon ، إنما نقل لغة الظاهر إلى لغة فيزيقية صادقة تستمد مفاهيمها الرئيسية من عالم الجسمية، تميز الحق من الظاهر عند لامبرتLambert ، هو الذي سيشكّل موضوعا بارزا في صلب الميتافيزيقا نفسها، الذي هو بدوره يثير علاقة الحاسة بالعقل المحض (هيوم/كانط)[3].

الفينومينولوجيا على معنى الظاهرle sens de l'apparente ، سترسخ بما هي المبحث التمهيدي الذي يقدم المبادئ لتستحيل الفينومينولوجيا في قلب الميتافيزيقا، و هذا ما ذهب إليه كانطKant تحديدا.

اهتمام لامبرت هذا بالظاهر بدى لكانط إذا على أهمية بالغة، من جهة أنه يعطي الميتافيزيقا فاتحة نقدية، هي الفينومينولوجيا العامة، التي تهتم بالعنصر الميتافيزيقي من جميع الوجوه الناجمة عن تداخل مبادئ الحاسة بمفاهيم العقل الخالص أثناء نشاطه.

هذا المعنى النقدي، الذي ستختص به الفينومينولوجيا العامة عند كل من لامبرت Lambert * و كانط لأنه سيناظر على التدقيق الوجه الذي سيستوضع هيجل على

---

[2] هيجل. فنومينولوجيا الروح، ترجمة ناجي العونلي المنظمة العربية للترجمة ط1 2006 بيروت ص15.

* الفينومنولوجيا Phénoménologie: دراسة وضعية لمجموعة ظواهر كما تتجلى في الزامن أو المكان، بالتعارض ما مع القوانين المجردة و الثابتة لهذه الظواهر، و إما مع الحقائق المتعالية التي ينكنها أن تكون من تجلياتها، و إما مع النقد المعياري لمشروعيتها، تقال على نحو خاص في عصرنا على منهج هوسيرل نفسه.
أندريه لالاند. موسوعة لالاند الفلسفية المجلد الثاني، المرجع السابق ص973.

[3] Poul Ricoeur, A L’ecole de la Phénoménologie , Paris , Librairie , Philosophique J.Vrin 1993 P141.

* الفينومينولوجيا Phénoménologie: نظرية المظهر هي عنوان الباب الرابع من كتاب لا مبرت Neues Organon: و من الحتمل جدا أن يكون هو الذي ابتكر هذا المصطلح، و قد تناولها كانط في تحديده لظواهر الحركة و السكون و في علاقتهما بالتمثل، أي بوصفها سمات للظواهر.أما هيجل فقد استعملها على تاريخ المراحل المتعاقبة و التقريبات و التعارضات، التي ارتفعت الروح بها من الإحساس الفردي إلى العقل الكي، كما استعملها هاملتون الذي يشير بهذا الإسم إلى علم النفسفي تعارضه مع علم المنطق، و عرفه علها على أنها علم قوانين الفكر من حيث هو فكر، و استعملها هارتمان الذي يرى أن على ظهورية الوعي الأخلاقي أن تكون حرة كاملة قدر الإمكان الوقائع الوعي الأخلاقي، بدراسة علائقها، و البحث الإستنتاجي للمبادئ التي يمكن ردها إليها.

نحوه سؤال البدء في نسق الفلسفة رغم أن القصد الفينومينولوجي L'intention phénoménologique بين لامبرت و كانط و هيجل يختلف، لأن ما قصد به هذا الأخير في فينومينولوجياه يختلف عن ما تختص به النقدية الترنسندنتالية. فالقصد الفينومينولوجي L'intention phénoménologique الهيجيلي هو قصد من أجل المعرفة، لكن نقد العقل الخالص هو الذي سيحل في النقدانية الترنسندنتالية محل فينومينولوجيا عامة، في هذا السياق صار مفهوم الفينومينولوجيا ضمن إنشغالات الفلسفة مع مطلع عام 1800، و بعده بعامين أصدر كارل راينهولد مقالة موسومة ب: "عناصر الفينومينولوجيا éléments de la phénoménologie ، أو إيضاح الواقعية من خلال تطبيقها على الظواهر" ثم أدرجت ضمن كتاب "مساهمات في رسم حال الفلسفة"حاول أن يميز فيه الظاهر من الظواهر، على أنه من عمل التجربة expérience ، من جهة ما هي تجربة صادقة تتميز من التجربة الظاهرة أو المتخيلة أو المعطاة[4]. و يذهب راينهولد في هذا الكتاب إلى اعتبار أن الفينومينولوجيا هي فلسفة خالصة في الطبيعة، و الجديد الذي ساقه هنا، هو عملية اقتران مفهوم الفينومينولوجيا بالتجربة، و إن كان راينهولدReinhold قد ذهب في مذهب الطبيعيات، و هو المنحى الذي سيخرج عليه هيجل تماما، بل ستنفي فينومينولوجيا المعرفة عند هيجل ذلك التقيد الطبيعي للتجربة.

لكن الحدث الهام هنا، هو استقرار مفهوم الفينومينولوجيا Le concept de la phénoménologie ضمن التناول الفلسفي خاصة مع راينهولد كما رأينا. استقرار ترسّخ مع فيشته عندما سمى الباب الثاني من مقالته في فقه العلم ، (فقه الظاهرة و الظاهر1804)، هي التي يخلّص منها فقه العلم إلى فينومينولوجيا في المطلق، تقع مع فلسفة الأنا Philosophie de l'ego (فينومينولوجيا المطلق)، التي تعني الفهم المطلق للواقعة الأنطولوجية للمطلق[5]، أو بالأحرى رفع الأنا إلى مقام إشراقي هو مقام التفكير من جهة ما هي الرؤية المطلقة التي للعقل، التي تنجم عن موضوعية خاصة بها و من دون أي توسط، و من حيث تظهر الظاهرة ذاتها للعقل الخالص[6].

يحلنا (م.مارسال): إلى نصين من القرن التاسع عشر وردت فيهما كلمة فينومينولوجيا و هما:

أ- (ليست الفلسفة علما مؤسسا على تعريفات مثل الرياضيات، و لا هي مثل الفزياء الإختبارية، ظهورية- سطحية، إنها العلم الأخير لأسباب كل الأشياء).

ب - (إن خطأ العقول المحدودة هو عدم إنصافها الوهم، أي إنصاف الحقيقة النسبية، النفسية و الذاتية محضا. إن المعاقلات العامية تفتقر إلى نقد دقيق، و تكون لنفسها أغبى فكرة عن الحقيقة الدينية، أو عن الحقيقة، لأنها لا تعقل طبيعة الروح البشري و قوانينه، فالظهورية-حرف مغلق بالنسبة إلى هؤلاء الأفظاظ الذي يعيشون على سطح نفسهم>.

أندريه لالاند. موسوعة لالاند الفلسفية المجلد الثاني، المرجع السابق ص974.

[4] هيجل. فنومينولوجيا الروح، المصدر السابق ص18.

[5] هيجل. فنومينولوجيا الروح، المصدر السابق ص19.

[6] المصدر نفسه ص 20.

هذه هي أهم المحطات النظرية لظهور فكرة الفينومينولوجيا إلى أن وصلت إلى هيجل، التي تحوّلت إلى شغل هيجل الرئيسي من أجل وضع نسق شامل في الفلسفة رغم صعوبة بنائها، التي هي راجعة إلى تعقد المستويات التي نظر منها هيجل إلى ديالكتيك المعرفة البشرية Dialectique de la connaissance humaine ، إذ أن المرأ حين يقرأ نص فينومينولوجيا الروح يشعر بأن ثمة تداخلا مستمرا في كل مرحلة من مراحل التطور الديالكتيكي للمعرفة بين ثلاثة خطوط كبرى من التطورو هي:

أولا: خط البناء الموضوعي للعالم في لحظاته الجدلية[7].

ثانيا: خط الحضارة الكلية أو الثقافة العامة في تكونها التاريخي.

ثالثا: خط الوعي الفردي عبر خبراته المتعاقبة. فكل خبرة من خبرات الوعي الفردي إنما تمثل صورة من صور الخبرة التاريخية للفكر البشري، لدرجة أن البعض قد استطاع إقام صراع من التواري بين لحظات ترقي الوعي في الفينومينولوجيا من جهة، و بين فصول كتابه تاريخ الفلسفة، التي تقابل هذا الوعي في مجال تاريخ الثقافة من جهة أخرى، و ليس ما يمنعنا فيما يقول غارودي- من إقامة تواز آخر بين لحظات ترقي الوجود في كتاب علم المنطق و لحظات ترقي الوعي في كتاب فينومينولوجيا.

إن هيجل في مسعاه هذا طالما اعتمد على النقد*في الكشف عن النقائض، و في إلغاء متناهيات الوعي الطبيعي، حتى يخرج الفلسفة من زيغ تلك المتناهيات لكي تقوم مقام العلم.

لكن النقد بدلالته، دلالة نقد ثقافة العصر و دلالة النقد الريبي (الشكي)، كطريقة يعتمدها التفلسف، من حيث يزيل التفرقة التي يحدثها الفكر بين ظاهرة المطلق و بين جملة التغييرات التي يظن فيها أنها قائمة بمعزل عن المطلق.

لكن النقد الخالي من النظر التأملي يبقى يحايث الظاهر من وجه سلبي فقط، من دون أن يطال مقام التفلسف نفسه من جهة ما هو مقام النظر التأملي أي مقام النسق، من هذه الزاوية يتبيّن سبب اعتماد هيجل المنحى النقدي في بناء المنحى النسقي للفلسفة، فهو عمل تركيبي حتى يتم الإرتقاء بثقافة العصر إلى مقام التفكير المحض، و تحقيق المفهوم المنطقي في صلب التفكير[8].

---

[7] Garaudy : La Pensée de Hegel, Bordes Paris 1966 p 39.

* النقد Critique لا ينتج فلذلك ثقافة تفكر صوري، بما هي ثقافة زمانها لثقافة تناظرها اتجاه فلسفي، تعتمده الفلسفة في : هو محالة وعيا فلسفيا بالعصر، و يهيئ للتفلسف أسباب قيامه من حيث تتمكن الفلسفة من مناظرة اللافلسفة، و هنا يشدد هيجل على صلة النقد بفكرة الفلسفة، إذا غرض النقد الفلسفي هو تمكين ما هو فلسفي من اللافلسفي بما هو ظاهر فلسفة (هيجل فنومينولوجيا الروح، المصدر نفسه ص24).

[8] Paul Ricoeur , A L’ecole de la Phénoménologie p142.

بهذا التأكيد من أجل تخليص الفلسفة من شوائب ثقافة العصر، و تطوير المنحى الريبي كشرط لقيام التفلسف، و بيان الفلسفة من جهة ما هي علم، أي بيان العلمي للفلسفة. ففاتحة مشروعه الفلسفي هنا لم تعد مجرد مدخل نقدي سالب، بل لا تكون فاتحة نسق العلم ما لم تكن على عين العلمية الذي لهذا النسق، على هذا المعنى تحمّلت فينومينولوجيا الروح مشقة فاتحة نسق العلم، الذي يهدف إلى تحري علمية العلم، و البحث في الكيفية التي يصير بها الوعي الفردي وعيا مطلقا، بما هو جملة تقنيات ذاتية منفصلة[9]، و فينومينولوجيا الروح تشتغل بأسلوب علمي إلى إظهار الروح إظهارا (الوعي conscience). فالمطلق في فينومينولوجيا الروح لم يعد وحدة جوهرية، بل أمسى بالجوهرية روحية متمظهرة.

الفينومينولوجيا تبحث في أصل التشكّل الجوّاني بين أشكال و إظهارات جزئية للوعي إلى أن تجتمع على بنية فينومينولوجية واحدة (أشكال الوعي التاريخية، الإيقان الحسي، الإدراك الحسي، الذهن و القوة)[10].

الفينومينولوجيا هي تراتب دوائر الوعي المتراصة، يشتّد ضمنها شيئا فشيئا حتى تعدل جملة العلم المظهر، يقول هيجل< إنما فينومينولوجيا الروح، تتفحص التوطئة للعلم انطلاقا من زاوية نظر بعينها، و بذلك تكون علما حادثا و مهما، بل علم الفلسفة الأول، فهي تنطوي على الأشكال المختلفة التي للروح من جهة ما هي محطات يصير الروح عبرها علما محضا، أو روحا مطلقا.

إن للوعي المعرفي تاريخ تمظهري، هو على الحقيقة سبيل تكوين ذاتي (للوعي تاريخا تكوينيا). الفينومينولوجيا كما سنرى، لا تبدأ من عند فكر مجرد، بل من عند فكر حسي بسيط للغاية (الإيقان الحسي)، و هو في بداية تكوّن يبدأ بتحديد هذا الحسي بعينه، و لكن هل للوعي القدرة على تحديد كينونة الحسي، مثل هذه شجرة؟.

إذا تجربة الإيقان الحسي تنتهي إلى مقولة الكلي المجرد، و هذا الذي يساعد الوعي بالمرور إلى الإدراك الحسي، لأن الوعي يعترف بأنه أمام كثرة من هذا الحسي، يحيل فيها كل هذا إلى غيره، لقد صار الكلي المحسوس كالشيء ذي الخاصيات المتكثرة، أما الوعي فيسعى إلى إدراك وحدة تلك الخاصيات المتكثرة في شيئية واحدة(حد).

أما أهم الأهداف التي جاءت لأجلها الفينومينولوجيا هي:

- تقييد هيجل للغرض الرئيسي الذي هو وجوب أن تصير الفلسفة علما، ما دامت العلمية الشكل الحق الذي للحقيقة (فقرتان 6/1 المصدر نفسه).

---

[9] هيجل. فنومينولوجيا الروح، المصدر السابق ص28.

[10] المصدر نفسه ص37.

- نقد فلسفات العصر و مناظرة الحال التي ألت إليه الفلسفة من جهة تأسيس عهد جديد للفكر(فقرات 16/7).
- تقديم المطلق على أنه إنجاز الطور الجديد للروح (فقرات 26/17 المصدر نفسه).
- وضع مفهوم الطريقة التأملية التي تختص بها الفلسفة و تميزها عن المنهج التاريخي ومناهج التعليم (فقرتان70/39 المصدر نفسه).
تحليل فكر الأجناس في تلقيها للفلسفة و دور الجمهور فيها(فقرتان71/ 72).
ثم ينتقل هيجل إلى شرح المناهج التي طغت على فلسفات العصر، الذي يرجع على التدقيق إلى تصورين فاسدين للطريقة في الفلسفة، أما الأول فهو الذي يعتمد استعارة طريقة الرياضيات و تطبيقها على الفلسفة، و الحال أن الفلسفي مغاير تماما للتعاليم، فهذه إنما تظل معرفة برانية و غريبة عن عرضها الخاص بها .
أما التصور الثاني فيرجع إلى ما يسود فلسفة العصر من تأملية زائفة، يشخصها هيجل بوصفها التفكير المماحك ، الذي يمثل على الحقيقة ضربا من الميتافيزيقا>[11].
هذه النتائج تلزمنا على اعتبار أن المطلق هو وحده الحق droit. و الحق هو وحده المطلق*، و علة هذا النحو يظهر لنا أن الوعي الطبيعي إنما هو تصور للمعرفة، أو معرفة غير متحققة. ولكن هذا الوعي إذا كان يرى نفسه مباشرة على أنه المعرفة المتحققة، و إذا أردنا أن نستقي حقيقة المعرفة، بدا أن سؤالنا ينصب على ما هي المعرفة في ذاتها؟، و لكن المعرفة من خلال ذلك، ستكون موضوعنا نحن، قيامها قيام لنا، و ماهيتها حين ندركها لن تخرج عن كونها لنا والعقل حين يدرك ماهيته هذه سوف يرتّد إلى طبيعة المعرفة المطلقة la connaissance de l'absolu.
إن الحق هو الكّل، و لكن الكل ليس إلا الماهية في تحققها و اكتمالها عن طريق نموها. فالمطلق يجب القول عنه، إنه في جوهره نتيجة، أي لا يصير ما هو إياه إلا في الختام، في هذه الصيرورة، تقوم طبيعته من حيث هو دخول فعلي في الواقع، ذات أو إنماء لنفسه بنفسه. و عليه يقول هيجل<إن المعرفة الخاصة بالذات في

---

[11] هيجل. فنومينولوجيا الروح، المصدر السابق ص89.

* المطلق Absolu: هو الذي لا يحتمل أي حصر أو تقييد طالما يدل عليه بهذا الإسم أو يشار إليه بهذه الصفة، و هو الفكر كما في الواقع، كل ما لا يتعلق بأي شيء آخر و يحمل في ذاته علة وجوده، و هو أيضا كل ما يكون خارج كل علاقة بوصفه تاما و كاملا، متحققا كليا، و بهذا المعنى يكون المطلق متعارضا تماما و حتى متناقضا مع اللامتناهي.
لقد إنتقد هاملتون Hamilton مفهوم المطلق عند شلينج و هيجل، كما كان هو الشيء بذاته عند كانط، الشيء الذي تمتنع معرفته طالما أنه خارج كل علاقة، خارج قدراتنا و ملكاتنا المعرفية.
أما العقل المطلق عند هيجل، فهو يمثل بعد العقل الذاتي و العقل الموضوعي، اللحظة العليا من لحظات تطور لفكرة، إنه الوعي المناسب من الآن فصاعدا.
أندريه لالاند. موسوعة لالاند الفلسفية المجلد الأول، مرجع سابق ص04.

الآخروية المطلقة هذا الأثير، من حيث هو كذلك، هي أساس العلم و تربته المعرفية في كليتها و يفترض، البدأ في الفلسفة وجوب الوعي في هذا العنصر، غير أن هذا العنصر إنما يتلقى كماله و طابعه الشفاف من خلال حركة تطوره وحدها، فهو في حد ذاته العقلانية البحتة[12]>. فالمعرفة في أول ما تكون عليه هو ما خلا من النشاط العقلي، أو الوعي الحسي، و لكي نبلغ إلى المعرفة بالمعنى الصحيح أو لكي نولّد عنصر العلم الذي هو عند العلم تصوره الخالص، لم يكن به تجتاز هذه المعرفة طريقا مضنية.

إن العلم يقدم لنا هيئة حركة التكوّن الذاتي هذه، مفصلا جيرانها مبينا ضرورتها، و لكنه يقدم أيضا ما قد سبق خفضه إلى مستوى اللحظة المنقضية، و مستوى الملك المكتسب للعقل والهدف المطلوب هنا، هو نفاذ العقل إلى حقيقة المعرفة.

إن الوجود المباشر للعقل، ألا و هو الوعي، ينطوي على لحظتين:

المعرفة الموضوعية La connaissance objective القائمة في مواجهتها كضد سالب. و لما كان العقل ينمو في عنصر الوعي هذا، و يبسط في لحظاته و مراحله. فهذا التقابل ينفذ في كل لحظة من هذه اللحظات التي تبدو عندئذ جميعها كأنها أشكال الوعي المتعاقبة Formes successives de la conscience ، و العلم بهذه الطريقة، هو العلم الخبرة التي يخوضها الوعي. علم يغدو فيه الجوهر بحركته موضوعا لنفسه. إن الوعي لا يعلم و لا يتصور إلا ما دخل خبرته، فما يدخل هذه الخبرة إلا الجوهر العقلي، و إنه ليدخلها باعتباره موضوعا لنفسه[13].

إن اللامساواة القائمة في الوعي بين الأنا و الجوهر الذي هو موضوعه، هذه اللامساواة هي الفارق بينهما، و هي السلب على إطلاقه، فهي روحهما المحركة، و ذلك هو ما حدا ببعض القدماء إلى اعتبار الفراغ مبدأ الحركة Le principe de mouvement، فبلغوا بذلك إدراك أن المحرك هو السلب. و إن لم يدركوا أن السلب باعتباره الهو، و إذا كان السلب يبدو للوهلة الأولى في صورة اللامساواة بين الأنا و الموضوع، فهو بالدرجة الأولى لا مساواة بين الجوهر و نفسه. فما يبدو و كأنه يحدث خارج الجوهر، كأنه قوة موجهة ضده، فهو فعله هو، و إنه ليتجلى في صميمه ذاتا وبتمام هذا التجلي يكون العقل قد سوى بين كونه هناك و بين ماهيته، فهو عندئذ موضوع نفسه كما هو.

المعرفة الفلسفية عند هيجل هي معرفة بالوجود، و الوجود يتحقق في المعرفة في آن واحد وكل نقصان يلحق بهذه المعرفة، يمس بالمعرفة نفسها كما يمس مادتها على حد سواء فيما يخص المعرفة. المعرفة الفلسفية لا تنظر إلى التعين

---

[12] هيجل. فينومينولوجيا الفكر، ترجمة مطفى صفوان، المكتبة الوطنية للنشر و التوزيع 1981 ص 38.

[13] هيجل. فينومينولوجيا الفكر، المصدر نفسه ص47.

اللاجوهري، بل في اليقين من حيث تقوم به الماهية، فعنصرها و محتواها ليس المجرد أو عدم الوقوع الفعلي، بل هو الواقع نفسه، و كل ما وضع نفسه بنفسه. فعنصر الفلسفة هو العملية التي تولد لحظاتها و تجتازها وهذه الحركة في كليتها هي التي يتألف منها الوضعي[14].

إن فينومينولوجيا هيجل عرضت لنا ملحمة العقل، من العصور القديمة حتى الرومانسية متوجهة إلى اعتبار العالم كموضوع للفلسفة الحقة. فالفلسفة لا يمكن أن تكون علما إلا عندما تحدد موضوعا حاضرا بالمطلق، و تلك هي الكينونة كما يدرك معرفو وعي الكينونة. سبق لكانط أن بنى موضوع فلسفته على أنقاض مفهوم الإنسان، و فيشته أزال جذريا شبح الشيء في ذاته ليأمر الفيلسوف بإعادة بناء ظهور ظاهرة الكائن، الذي ينتشر في حياة الوعي البشري بالذات. و بمعنى عام تصبح الفلسفة هنا فنومينولوجيا، إلا أن الفينومينولوجيا قبل هيجل، هي فقط فينومينولوجيا الوعي كوعي، بجوهره الشمولي المجرد من المحتوى الموضوعي المتنوع من الوضعيات الملموسة للوجود- أي هو وعي في ذاته بالنسبة للفينومينولوجيا-[15]. هذا الثراء الأنطولوجي الملموس، هو الذي ظهر فجأة في الخطاب الفلسفي مع هيجل في عام عام1807.

بالطبع هناك في الفينومينولوجيا، مسألة المحتوى الكلاسيكي للفلسفة الحديثة، الذاتي للشخص،الوعي العقلاني الذي يجعل الذات تجد نفسها في الموضوع، من خلال معرفة أو حركة يدل عليها هيجل في ألوان التاريخ الثقافي، آخر حالة ملاحظة الطبيعة(المأساة الفاوستية*).

من أجل هذا، فإن الفينومينولوجيا تصف العقل مباشرة من الوجوه الإجتماعية في المدينة المأساوية لليونانيينVille du tragique grec [16]، من الطلاق الروماني بين الذاتية الشخصية والموضوعية الشمولية ومن تصالحهما الثقافي البطيء عبر طهارة العصور الوسطىMoyen-Age إلى غزوات عصر النهضة Invasions Renaissance وبراءة عصر الأنوار إلى الثورة الفرنسية و الرومانسية الألمانية romantisme allemand .

في هذا المنحى يتساءل جان غردان عن ما الذي يمكن للفينومينولوجيا أن تقدمه لنا؟ هل الأشياء ذاتها مثلا؟. هذا أكيد، لكن هذا الأمر لا معنى له إلا إذا افترضنا جدلا أن الأشياء ذاتها هي أولا و في أغلب الأحيان تكون مموهة، أو تحرف

---

[14] Jean Hyppolite, Etudes Sur Marx et Hegel , Editions Marcel Riviere et Cie paris 1955 p46.

[15] برنار بورجوا. فلسفة العالم، مجلة العرب و الفكر العالمي، ع15-16 خريف1991 مركز الإنماء القومي ص 96.

* Goethe, Faust.Traduction de Gérard De Nerval Hatier paris 1963 p13.

[16] Martin Heidegger, Hegel Traduit de l'llemand par Alain Boutot éditions Gallimard 2007 p161.

اتجاهاتها الأصلية[17]، و عملية فضح توهمات الوعي عن الأشياء و تحريفها عن أصولها هي من مهام الأساسية للفينومينولوجيا على غرار ما قصده هجيل من نص 1807.

إن فينومينولوجيا هيجل، تحقق في ذاتها مقاصد الفلسفة الحديثة، و هي أن تصبح حكمة العالم la sagesse du monde فكيف بعد ذلك لا يجد العالم نفسه فيها؟.

إنه يستطيع ذلك طالما أن الفينومينولوجيا تتأكد مما تقول، أي من محتواها. في الفينومينولوجيا صار العالم هو موضوع الفلسفة بقولها: فهي بشكلها تبدو وكأنها الخطاب الذي يوجهه لنفسه الوعي الملتزم بالعالم، أي الوعي الطبيعي، هنا يجد هيجل أيضا سابقيه.

فإذا كان فيشته يعرض عملية الإعلاء الضروري للوعي المباشر إلى العقلانية، فإن هذه الضرورة تقاس عنده بواسطة مثال الوعي العالم الذي يبقى بشكل دوغمائي. بينما عند هيجل فإن الوعي الطبيعي يقيس نفسه كل مرة بالنسبة لقيمته الخاصة (هذا الوعي هو سيد نفسه) وهو لكي ينجو عليه إذا أن يضيع نفسه لكي يكتمل في النهاية في المعرفة المطلقة.

فالفيلسوف بدلا من أن يمارس العنف عبثا على الوعي الطبيعي، يجب أن يكتشف له إرتفاعه العفوي إلى مثل هذه المعرفة. وهكذا فإن الفينومينولوجيا الهيجلية متحررة من أية أرستوقراطية فلسفية، تودّ أن تكون شاهدة متنبهة للحركة الذاتية للوعي الذي تساعده فقط، بأن تقدم له المرآة التي تعكس صورته الديناميكية الحقيقية. فالفينومينولوجيا تبدو هكذا خطابا علميا Discours scientifique ، يعرض محتوى ضروريا لا يشكل في خطواته الأولى المتواضعة سوى التمهيد الطبيعي للعلم[18].

و لكن هيجل بعرضه عام 1807 لفلسفته في نص يتطور كتمهيد للفلسفة، يعيد بعد ربع قرن تكرار البادرة الكانطية لعام 1781، و لكن كان شيء قد انقلب تماما بعد ربع القرن هذا،وحدث إذا تحضير لثورة حقيقية في الفكر و كانط أيضا، كان يبرر في تمهيد معين، محدد بشكل نقدي قدرة العقل، العرض الميتافيزيقي الخالص لنظام هذا العقل. ففي كلتا الحالتين وبالرغم من الفارق الكبير بين نقد العقل المحض Critique de la raison pure وفينومينولوجيا الروح. فإن الفلسفة العلمية تختلف بولادتها في تمهيد علمي لذاتها. فالبيان الهيجلي يحاول أن يرجع البيان الكانطي déclaration kantienne إلى الماضي ما قبل العلمي.

---

[17] جان غردان. المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا ، ترجمة و تقديم عمر مهيبل ، الدار العربية للعلوم ناشرون ط1- 2007 بيروت ص11.

[18] برنار بورجوا. فلسفة العالم، المرجع السابق ص96.

هذا التنافس يواجه بين أثرين يحويان، الأول كل النظام الكانطي (نقد العقل الخالص)، والثاني مجمل النظام الهيجلي (فينومينولوجيا الروح). فالأول لا يعرض فقط الفلسفة النظرية لكانط، بل كل فلسفته، و الثاني كذلك يشكل في محتواه مجمل النظام الهيجلي، إلا أن كانط و هيجل يقومان بشكل مختلف في هذه الوضعية المثالية لأثرهما.

إن الكتابات الأولى الفلسفية حقا عند هيجل، كانت فعلا كتابات الجدل الفلسفي الموجهة بشكل خاص ضد الفلسفة التأملية الكانطية، فقد أنجزت الفينومينولوجيا هذا العمل النقدي و عممته على كل الفلسفات ما قبل التأملية معدة لها دحضا ضمنيا.

إن الوصول إلى وجهة نظر المعرفة المطلقة، يتطلب شيئا أكثر من الارتفاع الشكلي إلى العقل، و هو يتطلب بأن يعاش الوعي حتى المفلس منه، و يتأكد في الحقيقة الأساسية لهذه الآراء، و في البروز التاريخي للروح و التحديدات الملموسة لها، إلا أن تطور وعي الروح في ديالكتيكه الضرورة، لا يجد محركه في اللعبة الشكلية للعلاقات بين الذات و الموضوع بين اليقين و الحقيقة. تلك العلاقة المكوّنة للوعي كوعي. إن السبب الخاص للمرور من تحديد الروح المدركة في غناها الملموس و التاريخي، إلى تحديد آخر يكمن في الديالكتيك الشكلي الخاص بالوعي كوعي، و الديالكتيك المادي الخاص بالروح في جوهرها الملموس، أي بالاختصار بين الديالكتيك الفينومينولوجيdialectique phénoménologique و ديالكتيك الروحdialectique de l'Esprit .

و هكذا عندما لا تعود شروط ارتفاع الوعي إلى المعرفة المطلقة شروط الشكلية فقط للوعي كوعي، و إنما تلك الشروط المادية للروح، فإن المرجع الفينومينولوجي للتطور نحو الوعي لن يكون سوى مسألة شكلية[19].

إن تنوع اللحظات في المعرفة المطلقة، هو نفسه تنوع المحتوى. فالمعرفة إذا ليست سوى جرد للحقيقة المطلقة، من أجل ذلك يمكننا أيضا أن نقول إن الحقيقة في الفينومينولوجيا، هي

على حافة المغيب، لأن التاريخ بهذا المعنى قد انتهى مرة أخرى في ظهيرة المعرفة المطلقة[20].

فالمعرفة في صيرورتها الظاهرة، ليست مختلفة عن الروح، لأن هذه الأخيرة هي معرفة بشكل أساسي، و لكنها فقط هي روح في ظهورها، الروح الظواهرية.

---

[19] Jean Hyppolite. Etudes Sur Marx et Hegel p48.

[20] لويس ألتوسير. روح ايينا ضد بروسا، مجلة العرب و الفكر العالمي، ع15-16 خريف1991 مركز الإنماء القومي ص101.

فهذه الأخيرة بدورها تبدو بشكل واقع مزدوج: الوعي الذي هو كائن، الروح الموجود، الوعي كما يعطى في الفرد و الروح الشمولي كما يعطى في العالم.

و يمكن أن نجمل محتوى فينومينولوجيا في أربعة مبادئ أساسية كما صاغها مشال هنري وهي:

المبدأ الأول: بمقدر الظهور مقدار الكينونة[21] Autant D'apparence,Autant A'etre.

المبدأ الثاني: هو مبدأ المبادئ، و قد صاغه هوسرل Husserl نفسه في الفقرة (24 من كتابه Ideen1)، و هو الحدس intuition. و بشكل أدق (كل حدس معطاء أصلي كينبوع الحق بالمعرفة) شأن كل إثبات أو قول عقلاني بشكل خاص، و لا شك في أن هوسرل هو المؤسس الفعلي للفينومينولوجيا، و جان غردان نفسه يؤكد ذلك في كتابه " المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا". لكن الأمر الذي لا شك فيه أيضا، هو أن الفينومينولوجيا لم تأخذ حظها من الإنتشار في الحقبة المعاصرة إلا بعد وفاة مؤسسا بسنوات كما يرى غردان[22].

المبدأ الثالث: مطلب عنيف جدا، بحيث يتضمن ما يشبه الشعار و حتى الصرخة الحق في الأشياء ذاتها.

المبدأ الرابع: جرى تحديده من طرف جان – لوك ماريون Jean Luc Marion، في كتابه الخفض و العطاء Réduction et Donation ، و لكن أهميته تنعكس على مجمل تطور الفينومينولوجيا، حيث يفعل هذا المبدأ اتجاها كافتراض مسبق خفي و لكنه دائم الفعل، و هو يصاغ على الوجه التالي: مزيد من الخفض، مزيد من العطاء[23].

إذا فلا شك أن فينومينولوجيا هيجل هي من ناحية تعبيرا قطريا مكتملا بذاته للنسق الديالكتيكي، و من ناحية أخرى ليست إلا حلقة البداية لهذا النسق كفلسفة كلية. فكلمة الفينومينولوجيا، و هي تعني علم الظاهرة، الذي من جهته يتناسب أكثر مع نظرية المعرفة كما مع فلسفة العلوم، أصبحت اليوم إحدى المفردات الفلسفة الأكثر رواجا، و يعود الفضل في كثافة تداوله إلى الفيلسوفين الألمانيين: هوسرل Husserl و هيدغرHeidgger بالإضافة إلى مارلو بونتي Mer leau Ponty، و غيره من فلاسفة الوجودية و الشخصانية، لا شك أن هذه العبارة تحمل في خارجها، حيث إنها تجسد تيارا فكريا متكاملا و متفرعا إلى عدة ميادين علمية و أخرى فنية أكثر من ما كانت تحمله عند هيجل.

---

[21] Martin Heidegger, Hegel p161

[22] جان غردان. المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا ، المرجع السابق ص 10.

[23] مشال هنري. أربعة مبادئ للظواهرية، مجلة العرب و الفكر العالمي، ع15-16 خريف1991 مركز الإنماء القومي ص124.

في كتابه "المعرفة و المصلحة، صرح يورغان هابرماس Habermas Jurgan قائلا< وجدت نظرية المعرفة* نفسها بمرور الزمن، مضطرة على أن تتخلى عن موقعها لمنهج موثوق من قبل الفلسفة، لأن نظرية العلم التي ظهرت منذ منتصف القرن تاسع عشر كارثة على نظرية المعرفة، بعدما حلت محلها[24]>. هذا الانقلاب شكّل أزمة حقيقية لنظرية المعرفة الحديثة مزعزعا بذلك مصداقيتها، على إثرها أفرغ دور الفلسفة في مقابل العلم، هذه الأزمة دخلت في صلب النقاش الفلسفي الحديث لما اتسمت به من أهمية فلسفية بالغة الثراء المعرفي، نجم عنها سجال فلسفي بين كبار الفكر الحديث من هيوم Hume إلى هيجل، اختلفوا أكثر مما اتفقوا حول إمكانية المعرفة حينما سارعوا للإجابة عن هذا السؤال: هل المعرفة ممكنة؟.

يقصد هبرماس من قوله السابق، هو أن تتخلى نظرية المعرفة عن موقعها لمنهج موثوق به من جانب الفلسفة، و هو بالتحديد التخلي عن نظرية المعرفة الكانطية لصالح المنهج الفلسفي الهيجلي الفينومينولوجي، الذي فصله هيجل في نصه فينومينولوجيا الروح[25]، نظرا لعجز كانط عن بناء نظرية معرفة قادرة على معرفة المطلق، سواء كانت معرفة محكومة بما تمده إياها الحواس أو المواضيع المستقلة عن الحواس، أو ما يعرف بمواضيع الميتافيزيقا المتعالية la métaphysique transcendante مقارنة بما قدمه هيجل للمعرفة. هذا العجز في نظرنا هو الذي دفع بهيجل البحث عن نظرية معرفة بديلة عن المعرفة الكانطية، و الذي كان سببا كافيا في ميلاد فينومينولوجيا الروح لزحزحة ثقل نقد العقل الخالص. إذا أين تكمن إمكانية نظرية فينومينولوجيا المعرفة المطلقة الهيجلية؟، وما مدى شموليتها لشتى مواضيع المعرفة؟

* نظرية المعرفة: تعني مجموع الأدوات و الوسائل، التي نحكم بموجبها بالمقدرة على المعرفة من عدمها، و على صواب المعرفة من خطئها، و هو يلخصونه بقولهم< فعل الذات العارفة في إدراك موضوع و تعريفه بحيث لا يبقى فيه أي غموض أو إلتباس>.مراد وهبة. المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة 1979 ص412.
أو كقولهم< هي ثمرة التقابل و الإتصال بين ذات مدركة و موضوع مدرك>.المجمع الفلسفي. مجمع اللغة العربية، تصدير ابراهيم زكريا، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية 1979 القاهرة ص186.

[24] يورغان هابرماس. المعرفة و المصلحة، ترجمة حسن صقر، منشورات الجمل كولونيا، ألمانيا 2001 ص11-12.

[25] بخضرة مونيس. ضلالات العقل مع ذاته" هابرماس مع هيجل ضد كانط"، مجلة كتابات معاصرة العدد72 نيسان- أيار 2009 بيروت ص15.